كَانَ يَا مَا كَان . . . وَفِي سَرْدِ رِوَايَةِ التَّارِيخِ عِبْرَةُ الزَّمَان . لِأَهْلِ الْإِيمَان ، يَا عَرَبُ فِي كُلِّ مَكَان .

مِنْ ٩٠٠ سَنَة ، انْتَهَزَتْ أَغْلَبُ دُوَلِ أُورُبَّا وَإِمَارَاتِهَا ، تَفَكُّكَ الْعَرَبِ شِيَعاً وَأَحْزَاباً وَمَذَاهِب ، وَخِلَافاً بَيْنَ الْعَبَّاسِيِّينَ وَالْفَاطِمِيِّين ، عَلَى كُرْسِيِّ السُّلْطَان ، فَأَرَادَتْ تَحْتَ سِتَارِ الدِّينِ أَنْ تَغْزُوَ بِلَادَ الْعَرَب ، بِحُجَّةِ حِمَايَةِ مُقَدَّسَاتِ بَيْتِ الْمَقْدِس . وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْغَزْوَ كَانَ لِفَتْحِ مَجَالٍ أَوْسَعَ لِلتِّجَارَةِ وَمَزِيدٍ مِنَ الِاسْتِعْمَار .

obeikandl.com

وَنَجَحَ الإِفْرَنْجُ - بَادِئَ الأَمْرِ - فِى أَنْ يَسْتَقِرُّوا فِى أَرْبَعِ مَنَاطِقَ عَرَبِيَّةٍ شَرْقِيَّة ، هِىَ : « بَيْتُ الْمَقْدِسِ » وَ « الرُّهَا » وَ « أَنْطَاكِيَة » وَ « طَرَابُلس الشَّام » .

هَبَّ الْوَطَنُ الْعَرَبِىُّ يَبْحَثُ عَنْ زَعِيم ، فَكَانَ الْبَطَلَ التُّرْكُمَانِىَّ « عِمَادَ الدِّينِ زَنْكِى » ، الَّذِى لَمَعَ فِى مَوْقِعَةِ « طَبَرِيَّةَ » ضِدَّ الصَّلِيبِيِّين ، وَمِنْ بَعْدِهِ جَاءَ ابْنُهُ « نُورُ الدِّينِ مَحْمُود » ، الَّذِى سَانَدَهُ « نَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبُ » وَأَخُوهُ أَسَدُ الدِّينِ شِيرْكُوه » ، ثُمَّ « صَلَاحُ الدِّينِ أَيُّوب ابْنُ نَجْمِ الدِّين » .

obeikandl.com

اِشْتَرَكَ «نَجْمُ الدِّينِ» وَأَخُوهُ «شِيرْكُوه» مَعَ «نُورِ الدِّين»، فِى جِهَادِهِ ضِدَّ الصَّلِيبِيِّينَ فِى السَّنَةِ نَفْسِهَا الَّتِى وُلِدَ فِيهَا صَلَاحُ الدِّينِ بْنُ نَجْمِ الدِّينِ الْكُرْدِىِّ الْأَصْل . فِى قَلْعَة «تَكْرِيتَ» سَنَةَ ١١٣٨ مِيلادِيَّة . وَلَمَّا فَتَحَ نَجْمُ الدِّينِ - وَالِدُ صَلَاحِ الدِّينِ - مَدِينَةَ «بَعْلَبَك» ، جَعَلَهُ نُورُ الدِّينِ وَالِياً عَلَيْهَا . وَكَانَ «صَلَاحُ الدِّينِ» وَقْتَئِذٍ فِى الثَّانِيَةِ مِنْ عُمْرِه ، فَقَضَى فِى «بَعْلَبَك» خَمْسَ سَنَوَاتٍ مِنْ طُفُولَتِه ، لَا يَرَى فِيهَا إِلَّا لَمَعَانَ السِّلَاح ، وَصَلَابَةَ أَسْوَارِ قِلَاعِ الْمَدِينَة ، وَلَا يَسْمَعُ إِلَّا كَلِمَاتِ الْجِهَاد .

obeikandl.com

ثُمَّ بَدَأَتْ حَيَاةُ بَطَلِنَا الصَّغِيرِ صَلَاحِ الدِّينِ تَتَفَتَّحُ فِى جَوِّ الشَّجَاعَةِ وَالِاسْتِبْسَال ، إِذْ شَاهَدَ خُطَّةَ « نُورِ الدِّينِ » فِى الدِّفَاعِ عَنْ دِمَشْق ، وَاسْتِيلَاءِهِ عَلَيْهَا .

وَكَانَ صَلَاحُ الدِّينِ إِذْ ذَاكَ فِى السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِه ؛ وَحَدَثَ أَيَّامَئِذٍ زِلْزَالٌ جَبَّار ، دَكَّ الْأَرْضَ وَمَزَّقَهَا ، فَأَعَادَ وَالِدُهُ إِقَامَةَ حُصُونِهَا . فَرَأَى وَلَمَسَ كَيْفَ يُحَصِّنُونَ الْمَبَانِىَ وَالْمُدُن .

وَكَانَ أَنْ أَشْرَكَهُ عَمُّهُ « شِيرْكُوه » فِى رِحْلَاتِ جِهَادِهِ ضِدَّ الْفِرِنْجَة .

obeikandl.com

وَاتَّخَذَ صَلَاحُ الدِّينِ وَعَمُّهُ طَرِيقَهُمَا إِلَى مِصْرَ الْفَاطِمِيَّة ، ثَلَاثَ مَرَّات ، فِى حَمَلَاتٍ لِلدِّفَاعِ عَنْهَا ضِدَّ وَالِيهَا الْخَائِنِ « شَاور » ، فَحَاصَرَ الْقَاهِرَةَ أَوَّلَ مَرَّة ، ثُمَّ عَادَ لِيُحَارِبَهُ عِنْدَمَا اسْتَعَانَ « شَاور » بِمَلِكِ الصَّلِيبِيِّينَ فِى بَيْتِ الْمَقْدِس : « آمُورِى » .

وَفِى الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ اضْطُرَّ « شَاوِر » أَنْ يَحْرِقَ الْفُسْطَاط ، وَاسْتَمَرَّ الْحَرِيقُ ٥٤ يَوْماً . فَتَخَلَّصَ مِنْهُ صَلَاحُ الدِّينِ بِأَنْ قَتَلَه . وَأَنْهَى بِذٰلِكَ الْحُكْمَ الْفَاطِمِىَّ فِى مِصْر ، وَأَسَّس الدَّوْلَةَ الْأَيُوبِيَّةَ الَّتِى اسْتَمَرَّتْ ٨١ سَنَة .

obeikandl.com

وَاسْتَمَرَّ بَطَلُ الْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْأُولَى : «صَلَاحُ الدِّينِ» فِى تَخْلِيصِ كَثِيرٍ مِنْ أَرْضِ الْعَرَبِ مِنَ الْفِرِنْجَةِ وَمَنِ انْضَمَّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْخَوَنَة ، مِنْ حُدُودِ «النُّوبَة» إِلَى «بَابِ هَمَذَان» عِنْدَ حُدُودِ بِلَادِ الشَّام ، إِلَى أَنِ اسْتَرَدَّ «بَيْتَ الْمَقْدِس» فى ٢٢ سبتمبر سَنَةَ ١١٨٧ . وَانْتَصَرَ فِى مَوْقِعَتَىِ «الْكَرَك» وَ «حِطِّين» .

وَأَهَمُّ أَثَرٍ لِصَلَاحِ الدِّينِ فِى الْقَاهِرَةِ . الْقَلْعَةُ الَّتِى بَدَأَ يُشَيِّدُهَا فَوْقَ جَبَلِ الْمُقَطَّم .

اِسْتَنَدَ «صَلَاحُ الدِّينِ» إِلَى الْأَسَالِيبِ الْحَدِيثَةِ ، وَقْتَئِذٍ ، فِى حُرُوبِهِ ، إِذِ اعْتَمَدَ كَثِيرًا عَلَى سُرْعَةِ وُصُولِ رَسَائِلِ الْأَخْبَارِ بَوَاسِطَةِ حَمَامِ الزَّاجِلِ . كَمَا عُنِىَ بِاسْتِخْدَامِ الضَّفَادِعِ الْبَشَرِيَّةِ فِى اقْتِحَامِ الْحِصَارِ ، لِتَمْوِينِ رِجَالِهِ أَوِ اقْتِحَامِ حُصُونِ عَدُوِّهِ وَمُبَاغَتَتِهِ فِيهَا . كَمَا شَجَّعَ الشَّابَّ الدِّمَشْقِىَّ «عَلِىَّ بْنَ عَرِيفِ النَّحَّاسِيِّينَ» عَلَى الِاسْتِفَادَةِ مِنَ اخْتِرَاعِهِ قَوَارِيرَ النِّفْطِ وَالْبِتْرُولِ فِى حَرْقِ الْأَبْرَاجِ الْخَشَبِيَّةِ الضَّخْمَةِ لِلصَّلِيبِيِّينَ عِنْدَ حِصَارِ عَكَّا .

obeikandl.com

وَإِذَا كَانَ «صلاحُ الدِّينِ» قَدْ دَخَلَ صَفَحَاتِ التَّارِيخِ بَطَلًا جَمَعَ كَلِمَةَ الْعَرَبِ مِنْ مُسْلِمِينَ وَمَسِيحِيِّين ، فِى أُلْفَةٍ وَاحِدَةٍ ضِدَّ عَدُوٍّ أَجْنَبِىٍّ مُغِيرٍ مُشْتَرِك ، فَإِنَّهُ اشْتَهَرَ بِفُرُوسِيَّتِه وَشَهَامَتِه ، وَمَا زَالَتْ تَتَرَدَّدُ قِصَّةُ زِيَارَتِهِ لِعَدُوِّهِ وَخَصْمِهِ اللَّدُودِ الْمَلِكِ «رِيتْشَارْدَ قَلْبِ الْأَسَدِ» عِنْدَمَا دَاهَمَتْهُ الْحُمَّى ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِطَبِيبِهِ وَبِالْفَاكِهَةِ وَبِخَاصَّةِ مَا طَلَبَهُ مِنْ كُمَّثْرَى وَخَوْخٍ وَبَلَح ، بَلْ زَارَهُ فِى مُخَيَّمِه لِيَسْأَلَ عَنْ صِحَّتِهِ !

وَمَات «صَلَاحُ الدِّينِ» وَسِنُّهُ ٥٥ سنة . وَدُفِنَ فى دِمَشْق .

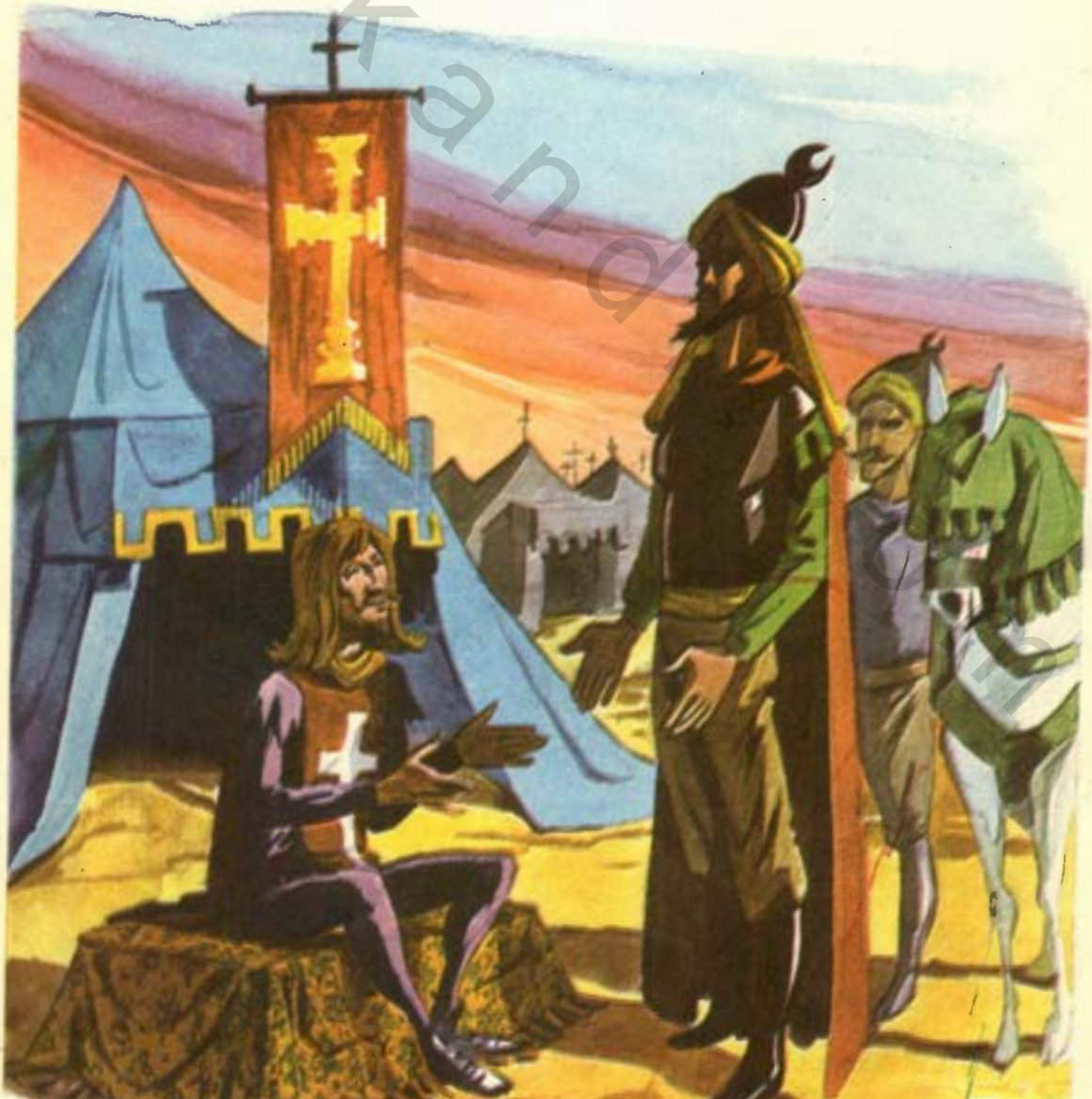

obeikandl.com